دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
**ARCIF** Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
**AIF** Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

# المخاوف الغذائية في تاريخ المغرب
# مُلاحظات حول الخوف والسلوك الغذائي
# في مغرب القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين

**د. كريم العرجاوي**
دكتوراه في التاريخ الحديث
الأكاديمية الجهوية لمهن التربية والتكوين
مراكش آسفي – المملكة المغربية

## مُلَخّص

*تسعى هذه الدراسة إلى الانتقال بالبحث التاريخي من محاولته الإجابة عن سؤال ماذا حدث ومتى وأين؟ إلى الإجابة عن سؤال كيف يشعر الناس بشأن ما حدث؟ من خلال إعادة قراءة تاريخ المغرب الغذائي من منظور يتداخل فيه الطبيعي والاقتصادي بما هو سيكولوجي واجتماعي، عن طريق الربط بين الأزمات الغذائية والانفعالات الحسية والسلوكية الناتجة عنها، خاصةً وأن هاجس الخوف من نقص الغذاء، من الحاجة والمجاعة، ظل مسيطرًا على تفكير الإنسان المغربي، ولعل هذا ما يفسر عددًا من مسلكيات التفكير والممارسة التي تبناها الفرد والجماعة في تدبير الشأن الزراعي والغذائي؛ ذلك أن الأزمات الغذائية التي نابت مغرب القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين أسهمت بشكل كبير في تنامي أحاسيس وأفعال من قبيل الخوف والفرار والعنف وتلاشي أنساق القيم الإنسانية، وهي انفعالات حسية وسلوكية غالبًا ما كانت نتيجة الخوف من الموت جوعًا .*

## بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٤ يناير ٢٠٢٤
تاريخ قبـول النشـر: ٢٢ فبراير ٢٠٢٤

## كلمات مفتاحية:

الأزمات الغذائية؛ السلوك الغذائي؛ الادخار التشعبي؛ المخيال الجماعي؛ اقتصاد الكفاف

## معرِّف الوثيقة الرقمي:

10.21608/KAN.2024.354639

## الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

كريم العرجاوي، "المخاوف الغذائية في تاريخ المغرب: مُلاحظات حول الخوف والسلوك الغذائي في مغرب القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين".- دورية كان التاريخية.- السنة السابعة عشرة- العدد الثالث والستون؛ مارس ٢٠٢٤. ص ١٠٩ – ١٢٣.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

**Corresponding author**: karim8arjaoui@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّورِيةُ كَان التَّارِيْخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

# "الجوع آلة اجتماعية ونفسية طاحنة"[1]

## مُقدِّمَةُ

يُعتبر موضوع الخوف والسلوك الغذائي من بين القضايا التي لم تنل حظها بعدُ من البحث التاريخي بالمغرب، خاصة إذا ما قارناه بما وصل إليه الغرب في هذا المجال؛ إذ شكّل الخوف في علاقته بالجوع موضوعًا مركزيًا في أعمال عدد من الباحثين المتخصصين في تاريخ السلوك والذهنيات،[2] عبر محاولة إعادة قراءة التاريخ انطلاقًا من مطلب الأمن الغذائي وهاجس الخوف من فقدانه؛ فإذا كان الموت الجماعي الناتج عن الأزمات الغذائية قد دمر البنيات الديمغرافية، فإن هذا الموت المأساوي قد ترك بصماته في سلوك الأفراد وأحاسيسهم،[3] إذ أكدت دراسات عدة على الدور الكبير الذي لعبته نوائب الطبيعة في تشكيل طبائع سلوكية وانفعالات حسية شكل الخوف أحد أبرز تجلياتها،[4] وهي دراسات حاولت الانتقال بالبحث التاريخي من محاولته للإجابة عن سؤال ماذا حدث ومتى وأين؟ إلى الإجابة عن سؤال كيف يشعر الناس بشأن ما حدث؟ وكيف يتفاعلون معه سلوكيًا؟ مؤكدة في السياق ذاته على أن تاريخ البشر ما هو إلا تاريخ مجتمع يعيش على وقع الخوف بكل أشكاله.[5]

تزداد أهمية البحث في تاريخ الخوف عند ربطه بعنصر مهم ظل هو الآخر مُهملاً في جوانب كثيرة منه، ألا وهو موضوع التغذية، الذي اقتصر البحث فيه عن ما هو كمي، عبر البحث في تاريخ أنواع الأطعمة والمشروبات،[6] وإغفال الأبعاد السلوكية والسيكولوجية المرتبط به، ذلك أن الطعام لا يُختزل في بعده البيولوجي المجرد، بل يعد فاعلا ثقافيًا وسيكولوجيًا؛ فالطعام جسر عبور إلى الأبنية الخفية للمجتمع، كما أنه "المحرك الأساسي لتاريخ الفعل الاجتماعي"،[7] والذي يمكن أن تشكل من خلاله التغذية مدخلاً رئيسيًا لقراءة وتحليل الأنساق الذهنية والثقافية وأيضا مدخلا لاكتشاف تاريخ المجتمعات وتحولاتها في الزمان والمكان. بناءً على ذلك، نفضل الانطلاق في هذه المحاولة من التساؤلات التالية: ماهي الانفعالات الحسية والمواقف التي أفرزتها الأزمات الغذائية؟ وكيف شكل توفير الغذاء هاجسًا سيكولوجيًا لمغاربة القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين؟ وكيف تتمظهر هذه الهواجس في سلوك ومواقف الأفراد والجماعات تجاه الأغذية؟ وما هي آليات الدفاع النفسي التي ركن إليها المغاربة زمن الأزمات الغذائية؟

## أولاً: الموت الجماعي زمن الجوع: الانفعالات والمواقف

خلفت سنوات الندرة الغذائية انهيارات ديمغرافية كبيرة، عكستها المصادر الإخبارية في صورة معطيات تراوحت في دقتها بين معطيات رقمية عددية وأخرى انطباعية وصفية تفيد هول الكارثة،[8] تعكس مجتمعة مظاهر الموت الجماعي[9] الناتج عن سنوات المسغبة وما رافقها من أزمات بيولوجية، ولعل هذا ما يدفعنا للتساؤل حول الأحاسيس والانفعالات الدفينة المرتبطة بمظاهر الموت الجماعي، أو ما كانت تعبر عنه المصادر التاريخية بـ "الموتان".

لقد تركت حالات الموت الجماعي الناتجة عن سنوات المسغبة بصمات واضحة في تصورات الأفراد وأحاسيسهم، كما تركت هواجس نفسية تُتَرجم في كثير من الأحيان إلى انفعالات وسلوكات، من منطلق غريزة الدفاع عن النفس وحفظ البقاء؛ فتواتر المحن الطبيعية من مجاعات وأوبئة، أسهم بشكل كبير في تنامي أحاسيس وأفعال من قبيل الخوف والفرار والعنف، وهي انفعالات حسية وسلوكية غالبًا ما تكون نتيجة "الخوف من الموت"،[10] ومن "طغيان الطبيعة"،[11] وأيضًا باعتبارها ردود أفعال طبيعية في مساعي الإنسان الحثيثة للنجاة من الموت جوعًا.

إن التهديد المصيري الناتج عن سنوات الجوع، أثر بشكل كبير على الأحاسيس والمشاعر الفردية والجماعية،[12] إذ غالبا ما كانت تُقترن المخاوف والهواجس النفسية بأزمنة المجاعات والسنوات المظلمة التي أنتجتها،[13] ولعل هذا ما جعل البعض يخلص إلى أن "الخوف من الجوع والمجاعة ونقص الغذاء ظل همَّ الإنسان وقلقه المؤثر في عقليته"،[14] وأن "الخوف من

الموت أهم مشكل واجه المغربي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر على الأقل".[١٥] ففي دراسته للخوف ببلاد المغرب، يؤكد أحد المهتمين على أن الكوارث الطبيعية بشكل عام، والمجاعات والأوبئة بشكل خاص، كانت وراء انتشار حالات من الرعب الجماعي، إذ يقول: "لا يمكن أن نتخيل مدى وقع الرعب الذي تكبّده الأفراد والمجموعات باعتبار عدد الوفيات والموت البطيء وما يسبقه من أيام للاحتضار في ألم وعذاب متجدد يتكرر دوريًا كل عقد أو عقد ونصف من الزمن".[١٦]

يمكن تلمس صور هذا الخوف بمغرب القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين من خلال بعض الإشارات المصدرية التي تفيد الحالة النفسية التي كان عليها المجتمع أفرادا وجماعات إبان المجاعات؛ فخلال أزمة (١٥٢٠-١٥٢٤م) والتي شهدت تواكب الوباء والمجاعة "تسرب الخوف إلى النفوس، وأضحى مالكو الحبوب يعرضونها للبيع بأثمان تتجاوز طاقة الفقير والموعز، وتتعدى ما اعتاده الناس من أثمان"،[١٧] وفي الموسم الفلاحي لسنة ١٥٥٢-١٥٥٣م، "إتعَطل الشّتَا مَنْ أول العام ولَا نْزلْ [...] ودُهشت الناس كثيرا".[١٨] كما كان من نتائج الأزمة التي ضربت المغرب والمغاربة إبان مطلع القرن السابع عشر الميلادي (١٦٠٣-١٦٠٦م) أن "عمّ الخوف الذي كان بالأمس كامنا مغمورا، واختل الحال، وتوزع البال، وتناهت الآلام"،[١٩] كما "مات قوم لا يحصون جوعا وبقي الهرج والقتل"[٢٠] و"كثر الهرج والغلاء في سائر البلاد".[٢١]

نستنتج من هذه الإشارات المقتضبة، أن بعض المتون الإخبارية عبرت بشكل صريح عن الحالة النفسية التي كان عليها المغاربة زمن الغلاء والمجاعات وما قد يواكبها من أوبئة، وهي حالة غالبا ما قادت العديد من المغاربة إلى محاولة البحث عن سبل للنجاة، ويعتبر الهلع والفرار الجماعي من المناطق المتضررة بالجفاف إلى المناطق الأقل تضررًا، ترجمة بارزة لردود الفعل السكانية الناتجة عن الخوف خلال فترات المجاعات الشديدة، كما هو الشأن بالنسبة إلى أهل مدينة فاس عقب جفاف عام ١٦٨٣م، حيث تأخر المطر وارتفعت الأسعار فكثر "الهروب والفرار منها".[٢٢]

كما كان للخوف الذي سيطر على النفسية المغربية، دور كبير في نزوع المغربي إلى البحث عن الحماية المعنوية من شبح الموت، من خلال البحث عن منقذ وحام يحميه من المصائب المختلفة، وهو ما كان يجده، ليس عند الزعامات المحلية الدنيوية، وإنما عند الصالحين من العباد ورجال الزوايا والأولياء، وذلك لما أظهروه من قدرة على ضمان الحماية المادية والمعنوية للناس، خاصة أن المناخ الثقافي الذي طبع ذهنيات العامة في مغرب القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين أكد سلطة المتصوفة، من خلال الإيمان بالخوارق التي يأتون بها. والظاهر أن العامة وجدت في الكرامات ما يتناسب مع أوضاعها ويوافق طموحها، لذلك كثر عدد الزوايا وعدد مريدها، "حتى كان عددها يفوق عدد المساجد"،[٢٣] فشكل بذلك المقدس أحد أبرز تجليات الأزمة النفسية وإحساس الخوف الذي ساد خلال الفترة مدار البحث.

لعل هذا المناخ الثقافي هو ما دفع البعض إلى القول بأن الكوارث الطبيعية كانت وراء نشوء "روح قلقة"،[٢٤] تنظر للمستقبل بخوف وتشاؤم، وترتب عنها حدوث صدمة عنيفة أسهمت في ترسيخ صورة الموت نتيجة الجوع باعتباره لعنة أو عقابًا إلهيًا في الذهنية المغربية. في مقابل ذلك، مثّل موت الفرد في حالة شبع رحمة تنبئ بمكانة صاحبها الآخروية، ولعل هذا ما يعكسه المثل الشعبي القائل: "لّي مَات علَى شَبْعَة مَاتْ مَرْحُومْ".[٢٥]

وإذا كان الموت خلال فترات الأزمة هاجس وهوس يومي للأفراد والمجتمع، فإنه من البديهي أن يصبح أكثر ألفة يتقبله الأفراد نتيجة كثرة الوفيات الناجمة عن المجاعات والأوبئة خصوصًا، حتى أن طقوس غسل الميت ودفنه تصبح متجاوزة، وهو ما يستشف من الإشارات التاريخية التي تفيد انتشار الجثث في الشوارع والأزقة؛ فخلال مجاعة ١٦٥٢م، "تفاحش الموت في الناس جوعًا وعجز الناس عن الدفن"،[٢٦] كما أن المجاعة الكبرى لسنة (١٦٦١-١٦٦٢م) خلفت عددًا كبيرًا من الموتى حتى تعذّر على الناس بمدينة فاس دفن موتاهم، بعدما صاروا غير قادرين على غسلهم والصلاة عليهم،[٢٧] وما قد يعكسه ذلك من انتفاء لقدسية الجسد في حالات الموت

الجماعي، بل يتحول إلى مادة لسد رمق الجوع عبر إقبال الجوعى على أكل جثث الهالكين.[٢٨]

وبصفة عامة، خلف الموت الجماعي الناتج عن الأزمات الغذائية مواقف وانفعالات، عبرت عنها النصوص بصفة مُضمرة توحي بتعمق الأزمة النفسية واستفحال مظاهر الخوف والشعور بالذنب، على اعتبار أن غضب الطبيعة ما هو إلا نتاج خطيئة بشرية استحق على إثرها الأفراد العقاب الإلهي، لتزيد بذلك هذه الأزمات من قلق الموت، الذي ظل معه الإنسان أمام مظاهر الموت الجماعي الناتج عن الجوع مسكونا بهاجس الخوف، وهو خوفٌ أسهم في تشكيل ذهنية قيامية، اعتبرت كل هذه المحن دليلاً على قرب "الساعة"، كما أفرز سلوكات احترازية قائمة على الادخار والتخزين تحسبًا لعذر الطبيعة وسنوات الجفاف.

## ثانيًا: التخزين وهاجس تحقيق الأمن الغذائي وتأمين البقاء

شكل سلوك التخزين والادخار أحد العناصر التي كانت بمثابة هاجس يومي للإنسان المغربي، ذلك أن الصراع الدوري مع شبح المجاعات والغلاء المتكرر، كان وراء ظهور سلوكيات مرتبطة بإعداد المخازن وادخار الأقوات، إذ إن التفريط في هذا الخيار الاحترازي كان يعرض حياته إلى جحيم الموت جوعا. فالجفاف، وإن ساد طيلة سنة كاملة وتضررت منه المحاصيل، فإن الحالة لا تسوء إلى درجة حدوث مجاعة خطيرة وانهيار ديمغرافي كبير،[٢٩] لكون الإنسان المغربي عمل على اتخاذ إجراءات وقائية لمثل هذه الحالات من خلال تخزينه للمواد الغذائية؛ فالتخزين كان بمثابة سلوك يومي لمعظم المغاربة، أفرزته هواجس أمنية سعت إلى تأمين المواد الضرورية لمجابهة الكوارث الطبيعية الصعبة بواسطة مرافق متعددة للخزن، صيانة من خطر المجاعات، والغلاء، وتوابعهما الديمغرافية، والاقتصادية. هذه التدابير والهواجس عبرت عنها الذاكرة والموروث الشعبي في صورة أزجال وأمثال شعبية، حملت مضامينها دعوة صريحة إلى الاحتراز من آفة الجوع عبر خزن المواد والمؤن الضرورية للغذاء،[٣٠] بحيث أدت تلك الهواجس الطبيعية إلى جعل سلوك الادخار عادة راسخة ومتجذرة في الثقافة الشعبية.[٣١]

في سياق هذا السلوك المعبر عن رد فعل الإنسان المغربي، نبه أحد المهتمين إلى إمكانية رصد نوعين من المخازن والمستودعات،[٣٢] الأول؛ انفردت به السلطة المركزية باعتباره خيارًا استراتيجيًا لاستمرار هيمنة الدولة المركزية وتأمين مواردها من المؤن للجند والعلف للدواب، والثاني؛ يتصل بكل الإجراءات التي قام بها المجتمع لتأمين قوته تحسبا لأي طارئ، سواء كانت هذه الإجراءات فردية أم جماعية.

١/٢-المخزن والتخزين

لا تسعفنا المصادر في تبيان ما إذا كان المخزن السعدي، باعتباره الدولة المركزية التي طبعت مغرب القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، قد عمل على إنشاء مستودعات رسمية لتخزين المواد،[٣٣] غير أنها تؤكد من جانب آخر استمرار هذا النوع من المخازن بمغرب الفترة، وهي مخازن موروثة عن فترات تاريخية سابقة.[٣٤]

والواضح، أن المخزن دأب عبر تاريخ المغرب على إنشاء المخازن والعناية بها، ذلك أن مخازن الطعام ومستودعات الحبوب الرسمية، كانت آلية وظفها المخزن لضمان أمنه الغذائي، باعتبارها دعامة مادية لتمويل حملات الجيوش وإمداد الرعايا بالمؤن الغذائية في فترات الضيق والمسغبة. ولعل هذا ما تؤكده بعض القراءات التي انطلقت من الحمولة اللغوية لمفهوم المخزن، بهدف الربط بين ماهيته ووظيفته، فاعتبرته أكبر مستودع للحبوب والمواد الغذائية من خلال امتلاكه لمطامير وأهراء انتشرت في كل أنحاء البلاد، وأن قاعدة سلطته تُستمد من فكرة التراكم والخزن،[٣٥] فمصطلح "المخزن" يدل في أصله على هذه الوظيفة الاجتماعية، لذا حرص السلاطين على بناء الأهراء الضخمة لتخزين المؤن، وكان أحد أغراض هذا التخزين الرسمي ضمان إمداد منتظم للأسواق للحد من موجة الغلاء في السنوات السيئة أو في حالة الحصار، وأيضا إغاثة المنكوبين في حالة وقوع مجاعة مفرطة.[٣٦]

ونتوفر على إشارات عديدة حول المخازن الرسمية التي كانت توجد بكل من مدينتي مراكش وفاس مطلع القرن السادس عشر الميلادي؛ فبضواحي مدينة فاس مثلا؛ كانت توجد "مخازن في غاية الكبر يسع أصغرها ألف رودجي من الحبوب. وتوجد مائة وخمسون مطمورة"،[٣٧] كما يصف لنا الوزان أهراء مراكش الكائنة في القصبة إذ كان بها "هريان مبنيان كذلك بسقف مقوس، في كل هري طبقة علوية، يوضع العلف في الطبقة الأرضية، ويخزن في إحدى الطبقتين العلويتين الشعير للخيل، ويخزن القمح في الأخرى".[٣٨]

ومن بين الأهراء التي شيدت خلال مطلع الدولة العلوية، الهريان العظيمان اللذان بناهما مولاي إسماعيل بمكناس إزاء صهريج السواني، أحدهما يحتوي على ٣٤٥ أسطوانة، ويزيد طوله على مائة وثمانين مترا، ولا يقل عرضه عن ٦٩ مترا، وهذا الهري هو الذي يقول عنه أبو القاسم: "وجعل [المولى إسماعيل] بها هريا لخزن الزرع يسع زرع المغرب كله".[٣٩] كما تحدث عن ذلك أحد الرحالة الأجانب، حيث أكد أن المولى إسماعيل كان يمتلك عددا من "المخازن التي تبقى مليئة مدة طويلة لدرجة أن المغاربة يحتفظون بحنطتها مئات السنين دون أن تتعرض لأي ضرر. وهم يملؤون بهذه الحنطة حفرا تسمى مطمورة، ولتزويد مخازن الإمبراطور يقوم عبيده بزراعة سهل المعمورة الشاسع وعدة مناطق أخرى من البلاد".[٤٠]

وعمومًا، فعلاقة المخزن بالتخزين علاقة وطيدة، سعى دائما من خلالها المخزن إلى ضمان أمنه الغذائي لمواجهة الكوارث الدورية والحصارات المرتقبة على حد سواء، خاصةً وأن جزءًا كبيرًا من هذه المدخرات كان موجها لتوفير حاجيات الجيش من المؤن، كما كان جزءٌ منها موجهٌ أيضا لدعم المحتاجين زمن الضنك والحاجة.

٢/٢-الادخار الشعبي: الجماعي والفردي

يحظى التخزين بعناية فائقة لدى الإنسان المهدد بشيء من الجوع، لأن الخوف من الجوع سلوك طبيعي مرتبط بغريزة البقاء، ولا عجب في أن ثقافة الجوع وهواجس الخوف من الموت، قد فرضت نتيجة التحولات المناخية الفجائية وما رافقها من مآسي ومجاعات إبان الحقبة المدروسة، نوعًا من التنسيق المشترك لمواجهة ندرة الأطعمة ومصاعب الجوع، فكان بناء المستودعات الجماعية أو ما يعرف بـ"الإكودار" نمطًا يعكس الرغبة الدائمة لصد شبح الآفات والجوائح،[٤١] وهي مخازن جماعية كانت مخصصة لاختزان حبوب الأهليين خاصة في المناطق الجبلية،[٤٢] لأجل ضمان العيش في ظل أزمة الخصاص والندرة، فهي "نتاج سلوكي، ومعطى أفرزته الضروريات" [٤٣] والهواجس الغذائية التي ترسخت في سلوك وثقافة المجتمع عبر التاريخ.

أما في المناطق الأطلسية، فقد أبدع المغاربة نوعا آخر من أساليب التخزين، ويتعلق الأمر بنظام المطامير، والتي تكون إما فردية أو جماعية، هذه الأخيرة تعرف بـ"المرس"،[٤٤] وتشترك فيها القبيلة أو الدوار، وهي مخازن تحت أرضية تُحفر في الأراضي الصلبة لقدرتها على خزن الحبوب لمدة طويلة دون أن يلحقها تلف، كما هو الحال بالنسبة للمناطق المتواجدة بناحية مدينة فاس، والتي تواجدت بها مطامير منحوتة "في جبل من حجر كلسي حيث توجد حفر عميقة (مطامير) تحفظ فيها الحبوب سنين عديدة، وتبلغ سعة بعضها أكثر من مائتي مد من الحبوب".[٤٥] ونظرًا لأهمية الذخائر المخزونة خصوصا الحبوب، فإن أعمال النهب كانت تستهدفها من حين لآخر، لهذا دأب السكان على مداومة حراستها، كما هو الشأن بالنسبة إلى أهل فاس، إذ "كان لهم حرّاس يحفظون حبوبهم".[٤٦]

حقا أدت المخازن دورًا هامًا في الحفاظ على الموارد والسلع من التلف، فهي تمكن السكان من توفير احتياطي مهم من الحبوب لاستعمالها أثناء الأزمات والكوارث الطبيعية، وهناك بعض المنتجات الفلاحية كالحبوب يحتاج الفلاح للاحتفاظ بها من أجل توفير البذور أو ادخارها في فترات الوفرة تحسبا لسنوات الشدة والقلة، وبالرجوع إلى مصادر الفترة، نقف على نصوص تتحدث على الادخار الفردي للأقوات؛ فهذا الحسين الصمودي (ت. ١٠٠٥هـ/١٥٩٦م) "ورد عليه مرة أصحاب الشيخ سيدي أبي محمد عبد الله الغزواني، فأمر امرأته بالانصراف إلى أهلها، وأدخلهم الدار وأراهم القمح والشعير والسمن والخليع وسائر ما في الدار من المتاع".[٤٧]

كما نتوفر على وثيقة غاية في الأهمية، تعود للقرن السابع عشر الميلادي، كتبها فقيه يدعى عبد الله بن محمد بن أبي بكر البوشواري، والذي كان حيا عام المجاعة الرهيبة لسنة ١٦٦١م، فنجده في هذه الوثيقة يرفع من شأن الادخار والاقتصاد في المدخرات الأسرية وتنظيمها، فيقول: "إن سِنِي المجاعة لا تجد فيها إلا ما ادخرته في السنين المُخصبة، فعليك بالادخار، ثم إياك وإياك السّرف. فادخر ما أمكنك من الإدام والزرع والجلبان واللفت اليابس والهرجان والخروب وغير ذلك، وزريعة كل شيء. ثم إياك التفريط في التبن، فهو تبر لا تبن [...] ولا تضيع حثالة واحدة من أورّمان الباقي من غليظ التبن، وادخر الزرع بقدر الإمكان، فإن كان ولا بد من بيعه للفساد، فبدله بنوى الخروب أو بالذرة فإنها لا تسوس أو بالجلبان أو بالإدام. وإذا أعجبتك بهائمك فبع منها، وكذلك الأجباح فإنها كحلم النائم. وإياك وسلف الزرع وإفساد التبن، فاخزنه متى تجد شيئا منه. فإنك ستندم إذا لم تخزنه في وجوده، ولا تخل يدك من كل زريغة". (٤٨)

إنه نص يختزل ضروريات المجتمع للتخزين، فقد دفع الخوف من شبح الموت جوعًا، بالجماعات البشرية إلى اعتبار التخزين ضرورة مهمة في الحياة، لدرجة جعلت صاحب النص يرتقي بالتخزين إلى مرتبة الواجب المقدس، وإلى ضرورة الحفاظ على الزرع وعدم تسليفه، مقدمًا في الوقت ذاته نصائحًا حول كيفية ومقدار الادخار قائلاً: "خُذ الثلث من كل شيء وادخره وكل الثلثين [...] اجعل ما فَضل لك في الحِصن [...] وادخر الزرع غاية ولا تبعه، فما بقي فيه أفضل من عدمه في المطامير، فان الفساد لا يُسرع إليه في المطمورة." (٤٩)

بالإضافة إلى تخزين الحبوب، دأب المغاربة على استعمال عدة وسائل لتخزين بعض المواد الغذائية الأخرى، وهي وسائل لا زالت مستعملة في جانب كبير منها إلى اليوم، خاصة تلك المتعلقة باللحوم وتجفيفها أو ما يعرف بـ"القديد" و"الخليع"، وأيضًا تمليح الأسماك وتجفيف بعض الفواكه كالتين والعنب، بحيث ذكر الوزان في مواضع عدة شيوع هذا السلوك الاحترازي بمغرب الفترة. (٥٠)

من جهة أخرى، يمكن ملامسة التدابير الاحترازية لمواجهة أزمات الندرة، من خلال السلوك الاستهلاكي الذي انطبع بطابع التقشف والزهد، (٥١) وتمكننا كتب المناقب والتراجم خاصة، من الوقوف عند عدد من الحالات التي شملها هذا السلوك، فهذه رقية معن (ت ١٠٨٧هـ/١٦٧٧م) كانت "آية من آيات الله في رفع الهمة والزهد[...]، في غاية الإخمال والإهمال، والتقشف والإقلال[...] لا تبالي بقلة ولا بمسكنة وعلية [...] وإذا أعطاها أخوها [...] شيئا مواساة لها ومعاونة، لا تأخذه"، (٥٢) ولعل هذا السلوك الاستهلاكي ذا الطابع التقشفي هو ما نجده في الموروث الشعبي الذي يحث على الاقتصاد في الطعام وتوفير زاد اليوم للغد. (٥٣)

وإذا كان ادخار المواد الغذائية سلوكا راسخًا في الذهنية الجماعية، فإن المغاربة لم يغفلوا تخزين مادة أكثر حيوية ألا وهي الماء، فأنظمة التخزين المتعلقة بهذه المادة، ومن منطلق الخصائص المناخية والطبيعية بالمغرب، شهدت تطورات مهمة عبر تاريخ المغرب، في إطار رهان الإنسان الدائم مع التطرفات المناخية، بحيث استعمل المغاربة تقنيات لتجميع المياه؛ منها على سبيل المثال "الصهاريج" و"المطفية" وغيرها من الوسائل الأخرى؛ فقد جعل المولى إسماعيل بمكناس "سواني للماء في غاية العمق"، (٥٤) والتي كان يعتمدها لتخزين المياه خلال الفترات المطيرة تحسبا لفترات الجفاف والندرة.

يتضح إذن، أن أنظمة الادخار متعددة، وهي وليدة معطيات جغرافية وسكانية، وإفراز لثقافة الجوع وشبح الخوف، الذي فرض على الإنسان المغربي ضرورة أخذ احتياطاته، عبر العمل على التخزين والادخار في سنوات الوفرة، تحسبا للجفاف ولأيام الندرة وما يرافقها من مجاعات خطيرة، لهذا فسلوك التخزين بشكل عام، غالبا ما كان يعبر عن استراتيجية وقائية مضادة، تعكس تخوفا من هجوم العدو كما تُضمر "اللا ثقة" في الطبيعة وضرورة الاستعداد المسبق لها، فهو سلوك احترازي غايته تأمين القوت في فترات الشدة، غير أنه في اللحظات التي تنفد فيها المدخرات الغذائية، فإن المغربي يلجأ إلى التكيف مع الواقع، وذلك عن طريق مواجهة هذا الواقع بالبحث عن بدائل غذائية، وهو ما

كان يلوح بقوة في أوقات المسغبة التي لجأ فيها المغاربة إلى مسلكيات غذائية جديدة تجاوزت في بعض الأحيان مسألة الحلية والحرمة.

## ثالثًا: الخوف والسلوك الغذائي: من اقتصاد الكفاف إلى اقتصاد القِطاف

تاريخ المجاعات بمغرب القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين معروف نسبيًا بفضل عدد من الإسهامات التي حاولت تتبع سنوات الجفاف والجوع من الناحية الكرونولوجية، ورصد انعكاساتها الديمغرافية والاقتصادية والسياسية، غير أن ما نصبو إليه في هذا الصدد هو البحث في أثر الخوف من الموت جوعا على السلوك الغذائي، كيف أثرت المخاوف الغذائية على النمط الاقتصادي القائم على اقتصاد القلة والكفاف، وحولته إلى نمط اقتصادي بدائي بالعودة الى الالتقاط والقِطاف؟

### ٣/١-في البحث عن بدائل غذائية عادية: العودة إلى الطبيعة

تكشف الأزمات المناخية عن سلوكات غذائية راهن عليها المغاربة زمن الحاجة لمحاربة الجوع؛ ففي اللحظات التي يصير فيها الجوع هو النص الحاضر، فإن المغاربة يلجؤون إلى "آليات التفاوض والتكيف مع الطبيعة"،[٥٥] وذلك عن طريق مواجهة هذا الواقع بالبحث عن بدائل غذائية خلال سنوات المسغبة. وتشكل العودة للبدائية وللنمط الاقتصادي القائم على القطف والالتقاط، سبيلا لتدبير القوت خلال الأزمنة القحطية؛ فأمام انتشار الجوع وتوالي سنوات الجفاف، يرتفع الإقبال على بعض النباتات والحيوانات والحشرات، التي لم تكن ضمن المائدة المغربية خلال الأوقات الاعتيادية.

يقدم صاحب الإحياء والانتعاش معلومات وافرة عن البدائل الغذائية التي ركن إليها المغاربة خلال المجاعة الكبرى لسنة ١٦٦٢م، حين كان سكان ضواحي جبل العياشي لا يأكلون طيلة تلك الأزمة "إلا الربيع إلا من كان منهم بخير يصنع لأولاده الصغار حساء ويأكل هو وباقي داره الربيع فترى القوافل إلى الربيع في كل يوم غادية راحة [...] إلى جهة بلا زيز [...] لموضع يقال له تصفنت فيمتارون منه أنواعا من الربيع لا يقتصون على نوع واحد منه فيطبخون تلك الأنواع جميعا في قدر واحد حتى تطيب فيعصرونه من الماء فيجعلون له شيئا من الملح فيأكلونه وكان هذا أشد في البطن وأثقل وبه صاموا رمضان أجمع".[٥٦]

هكذا كان الناس ينتشرون في الخلاء للبحث عن النباتات البرية من ثمار وأعشاب، ويبدو أن نبتة "إيرني" [٥٧] كانت الوجهة المفضلة لأفواج الجياع؛[٥٨] فخلال مجاعة ١٦٥٢م، "تفاحش الموت في الناس جوعا وعجز الناس عن الدفن [...] واشتد الأمر وغلت الأسعار واعتمد الناس على تالكوهت وإيرني حتى صار لا يوجد في الأسواق إلا هو، وكان مأكلهم سنتين".[٥٩]

علاوة على ذلك، اعتمد المغاربة خلال فترات الجوع على نبتة "البقول"، كما هو الشأن بالنسبة لمجاعة عام ٩٨٧هـ/٧٩-١٥٨٠م، وهي المجاعة نفسها التي عرفت في الذاكرة الجماعية بـ"عام البقول"،[٦٠] لكونها شكلت في أوقات الخصاص أساس ما استهلكه الناس لمحاربة الجوع، فهذا الشيخ أبو المحاسن (ت ١٠١٣هـ/١٦٠٤م) "كان يأخذ فأسًا ويخرج مع الناس لحفر قوته وقوت عياله من البقول والأصول التي تقتات بها الناس زمن المسغبة".[٦١] كما كان حَب "النبق" أيضا من بين المواد التي يُقبل عليها الناس في أيام الجوع، ففي زمن الغلاء، كانت فاطمة بنت أحمد الشقوري تقدم لأولادها من النبق "حفنة أول النهار، فكان يظهر عليهم الشبع وحمرة اللون".[٦٢]

ونظرًا للمكانة التي يحتلها الخبز في المائدة المغربية، فقد دأب الناس على مقاومة الجوع من خلال البحث عن بدائل نباتية لصناعة الخبز، والاستعانة على الجوع بأنواع الحبوب التي لا تستهلك خلال الفترات العادية مثل حبوب الشيلم، إذ تطحن منها أنواعًا من الخبز والعصائد،[٦٣] أو من خلال البحث عن بقايا الحبوب في أكوام التبن، كحال محمد بن أحمد التمنارتي (ت ١٠٠٧هـ/٩٨-١٥٩٩م) الذي "سافر مرة فترك أولاده بلا شيء في عام الجدب، فكانت له بنية صغيرة تأتي بيت التبن فتستخرج منه كل يوم كفايتهم".[٦٤] فضلا عن ذلك، أقبل المغاربة خلال سنوات الندرة الغذائية على ثمار ونباتات برية مثل الخروب والربيع؛ فخلال مجاعة سنة ١٥٢١م كان الخروب من بين المواد التي حملها

برناردو رودريكس **(B. Rodrigues)** معه الى أزمور لتقديمها كغذاء للرقيق،[٦٥] كما جاء في "الإحياء والانتعاش" أن السكان المجاورين لجبل العياشي كانوا خلال مجاعة سنتي ١٦٦١-١٦٦٢م يأكلون "الربيع مع شيء من الملح".[٦٦]

بالإضافة إلى هذه الأغذية ذات الطابع النباتي، استعان المغاربة على الجوع ببعض الأغذية الحيوانية من خلال صيد الوحيش؛ بحيث كان الناس يصيدون الأسود والثعالب والخنازير والظباء والقنافد والطيور الوحشية التي كانت تعج بها غابات السهول والجبال، وهو ما دفع بالبعض إلى القول بأن المغاربة يتحولون خلال فترات الجوع إلى كائنات لاحمة، تأكل كل ما من شأنه أن يجنبهم شبح الموت.[٦٧]

تعكس لنا هذه الإشارات، كيف كانت أزمات الجوع تفرض نوعًا من التحول في الأسلوب الغذائي، الذي يتخذ نمطًا بدائيًا قائما على الالتقاط والقِطاف. والظاهر أن هذه الأغذية البديلة، شكلت منقذا من الموت خلال سنوات الشح والمحن، فعلى المستوى الفيزيولوجي مكنت الجائع من تعويض النقص الغذائي الذي يعاني منه،[٦٨] مع بعض الاستثناءات التي كانت فيها هذه الأطعمة عاملا من عوامل ظهور بعض الأمراض، خاصة أكل الربيع الذي خلف بعض الوفيات، كما وقع خلال مجاعة ١٦٦١-١٦٦٢م حيث "مات البعض من أكل الربيع".[٦٩] غير أن استمرار المجاعة ونفاد كل الوسائل الغذائية الممكنة، دفع بالبعض إلى تبني سلوكات غذائية تدخل في دائرة المحظور. فكيف كان مغاربة الفترة يواجهون الجوع في ظل اشتداد الأزمة واستمراراها لسنوات متوالية؟

٢/٣-في البحث عن بدائل غذائية شاذّة: الضرورات تبيح المحظورات

أفرز الخوف من الموت جوعًا سلوكات غذائية أكثر تطرفًا،[٧٠] دفعت بالبعض إلى القول بأن "القمح هو روح جميع القيم"،[٧١] فبانعدامه تنعدم القيم، ويتحول السلوك الغذائي نحو ممارسة المحظور من أجل الحصول على الطعام، ويصبح كل ما من شأنه تلبية حاجيات الجياع البيولوجية مباحًا.[٧٢] ونتوفر على نصوص تعكس مظاهر هذا التحول وهذا السلوك الغذائي الشاذ، فقد سُجل أكل القطط والكلاب خلال أوقات المجاعة؛ فخلال مجاعة ١٦٦١-١٦٦٣م "انعدم الدجاج [بفاس] بالأصالة حتى لا يرى فيها ديك ولا دجاجة كما انعدمت وسقطت بالكلية من قريتنا أيضا بل قد سقطت منها أيضا القطوط، بحيث لا تسمع فيها لا صياح ديك ولا ماو قِط"،[٧٣] كما أُكلت "لحوم الحمير الأنيسة"[٧٤] والتي كانت توزن جهارًا لا خفية.

والظاهر أن استمرار الجفاف، وما رافقه من غلاء مفرط وانعدام تام للمواد الغذائية ولكل ما يمكن أن يشكل قوتًا لمحاربة الجوع، قد دفع بالبعض لأكل الجيف والدواب التي نفقت هي الأخرى بسبب المجاعة، وهو ما يؤكده الإفراني في حديثه عن الأزمة المناخية التي ألمت بالمغرب مطلع ستينيات القرن السابع عشر الميلادي، حيث وقع "غلاء مفرط بلغ الناس فيه غاية الضرر، حتى أكلت الناس الجيف"،[٧٥] كما "أُكلت الميتة جهارا" على حد تعبير القادري.[٧٦]

على أن أفظع السلوكات الغذائية التي أوردتها بعض المصادر، تلك التي استساغ فيها الجياع أكل جثث الهلكى ولحوم البشر، فبالرغم من كون المتون النصية لم تتوقف عند هذه السلوكات بشكل كافٍ، بقدر ما أشارت إليها بشكل مقتضب وبطريقة نمطيةٍ أحيانا، مما يعكس حقيقة تهرب هذه المصادر من إبراز هذه السلوكات المرفوضة دينيا، فبالرغم من كل ذلك، إلا أنها من جانب آخر عكست إشاراتها القليلة شيوع هذا السلوك إبان المجاعات ذات الوقع الشديد؛ يذكر القادري أنه من حوادث عام ١٦٥٣م "مجاعة كبيرة [...] وأكلت الجيف، وكثر الموت بالأزقة [...] وأكل الآدمي بوسط الصفارين جهرًا، وخلت الحومات"[٧٧] و"أكل الناس ولدًا من أولاد التازي".[٧٨] ولعل هذا ما يؤكد لجوء المغاربة إلى أطعمة "محرمة" في تجلي صريح لتنامي ظاهرة "الكانيبالية"، وما يعكسه ذلك من قدرة الجوع على إحياء سلوكات بدائية دفينة في الإنسان؛ فالجوع إذا تمكن من الإنسان، فإن نظرته لما حوله من القيم والمثل العليا تتغير بتغير سلوكه، إذ إن تواتر الأزمات واستمرارها، فرض على مغاربة القرنين ١٦ و١٧م النزوع إلى سلوكات غذائية اتسمت بالحدة من حيث طبيعتها؛ ذلك أن الجائع كثيرًا

ما تدفعه مخاوفه من الهلاك وحاجته الملحة للغذاء إلى سلك ما لا يتوافق والقيم الإنسانية.[٧٩]

لقد نتج عن الأزمات ذات الوقع الكبير حالات من الهستيريا الجماعية، فكثرت نتيجة لذلك ظاهرة الفرار عن الولد، وقتل الأطفال والانتحار، وبيع الأهل والأقارب لاسيما للنصارى؛ فمن الظواهر التي انتشرت خلال سنوات الجوع، اضطرار الشخص لبيع نفسه أو ذويه أملا في الحصول على ما يسد رمقه، وتقدم لنا أزمة ١٥٢٠-١٥٢٤م معطيات وافرة عن الموضوع خاصة بآسفي وأزمور؛ إذ كانت أعدادا "كثيرة تأتي من تلقاء نفسها، وعن طواعية "،[٨٠] في مشهد مخيف ومرعب عن حجم المآسي التي خلفها الجوع، وعن تفسخ واضمحلال القيم الإنسانية، حتى أن البعض باع أهله؛ فهذا رودريكس **(Rodrigues)** نفسه اشترى "من شخص يسكن خيمته ابنته وحفيدته"،[٨١] بل يورد قصة شقيقين تسابقا على بيع أنفسهما، أو أن يبيع أحدهما الآخر بقليل من الأموال،[٨٢] ولعل هذا ما جعل من ظاهرة بيع الأطفال والأهل موضوع نقاش ضمن كتب النوازل، كالسؤال عن "رجل باع حرة بمعظم الغلاء".[٨٣]

إلى جانب ذلك، أسهمت سنوات الغلاء ونقص المواد الغذائية في تنامي أعمال اللصوصية والحرابة؛ "ففي ظل الظروف العصيبة، حيث يسود القلق النفسي ويشتد الخوف على تأمين البقاء، كان كل فرد يحاول الحصول على غذائه بمختلف الوسائل، فتكثر أعمال النهب والسلب"،[٨٤] إذ غالبًا ما اقترنت الأزمات الغذائية باختلال الأمن وتنامي سلوك النهب وقطع الطريق؛ فعلى إثر المجاعة التي ألمت بالبلاد ما بين ١٥٢٠-١٥٢٤م كثر السطو بين المغاربة "حتى إنهم كانوا ينهبون بعضهم بعضا"،[٨٥] كما "صار جل الناس لصوصا"،[٨٦] وخلال جفاف ١٦٥١م "انتهب قمح كثير"،[٨٧] وهي شهادات تؤكد على شيوع الظاهرة وتناميها زمن الندرة، فضلاً عن ظواهر أخرى من قبيل سقوط المرأة في الفواحش، كما هو الحال بمراكش إبان مجاعة ١٦٢٧م التي أجبرت "حتى النساء العفيفات على ممارسة حرفة البغاء من أجل قطعة الخبز"،[٨٨] أو من قبيل تغيير الديانة وتنصر المغاربة والتحاقهم بالثغور البرتغالية.[٨٩]

## رابعًا: الكرامة كآلية سيكولوجية لمواجهة المخاوف الغذائية

تكشف المخاوف الغذائية عن آليات سيكولوجية ركن إليها المغاربة زمن النوائب سعيًا للتخفيف من تداعيات الأزمات الغذائية، ويشكل الخطاب الكرامي أحد الملامح البارزة لحضور المقدس الصوفي إبان لحظات الحاجة والضنك الغذائيين. غير أن البحث في تجليات أدوار المقدس الصوفي زمن الندرة يقتضي الانطلاق من جملة من الملاحظات المرتبطة أساسًا بطبيعة المادة المصدرية التي يمكن الاستعانة بها في هذا الباب؛ فإلى حد قريب، اتسم تعامل المؤرخ مع الخطاب المنقبي بنوع من اللامبالاة باعتباره نصًا "خرافيًا" يتجاوزه التاريخ، بيد أن بعض الدراسات أكدت على أهمية أدب المناقب،[٩٠] وعلى ضرورة مقاربة النص المنقبي مقاربة تتجاوز سؤال الصدق والكذب، وثنائية الاعتقاد والانتقاد، وجدلية الزيف والحقيقة،[٩١] من خلال اعتباره شكلاً من أشكال التعبير عن عقلية معينة، وعن تصورات وأفكار أسهمت في تشكيل المخيال الجماعي.

وفق هذا التصور، تصبح المادة المنقبية نصًا تاريخيًا، يمكن للمؤرخ التعويل عليه لقراءة ذهنيات ومخاوف المجتمع وتفاعله مع أزماته المتعددة، وهو ما أكدته بعض الأبحاث التي أقرت "بأن التصوف ظاهرة إنسانية أفرزها مجتمع متأزم وخائف، يواجه بها الخوف من الطبيعة"،[٩٢] وأن "الفكر الكرامي ينشط إبان مرحلة الأزمة"،[٩٣] ليطرح البديل لها رغبة في تجاوزها. ما يؤكد ذلك، الحضور اللافت لموضوع الأزمات الغذائية في أدب المناقب، إذ لا يكاد يخلو أي تأليف من إشارات ترتبط بتفاعل الولي مع مختلف الكوارث المناخية وتجلياتها الاقتصادية والاجتماعية المختلفة. فليس من قبيل الصدفة أن تحفل هذه النصوص بمجموعة من الكرامات التي استهدفت تجاوز إكراهات المجال بما فيها أزمات القلة والخصاص الغذائيين. فهل تسعف الكرامات في دراسة جوانب من تاريخ "اللاشعور" الجماعي إبان الأزمات الغذائية؟

نلتمس أجوبة على هذه التساؤلات، انطلاقًا مما أمدتنا به كتب المناقب والتراجم عن دور الولاية في

أوقات الأزمات الغذائية وتفاعلها مع إكراهات الطبيعة، وذلك عبر الاستعانة بعينات من المتون والنصوص المنقبية بمغرب الفترة، والتي يمكن القول إنها عكست تفاعل المقدس الرمزي زمن المحن الغذائية انطلاقا من ثلاث أنواع من الكرامات:

ترتبط الأولى، بتطويع الطبيعة ونفي إكراهات المناخ، فتصور لنا الكرامة الولي وهو يُغيث الناس زمن اشتداد القحط والجفاف؛ فهذا الولي الصالح أبو الشتاء (ت ١٠٧٢هـ/١٦٦٢م) صاحب الأحوال، و"الذي ما كني بأبي الشتاء إلا بسبب أن الناس احتاجوا إلى الشتاء فلجأوا إليه فأمطروا في الحال".[٩٤] وقد يصل الأمر إلى حد طلب الغيث من الولي عنوة كحال جماعة أيت عتاب التي أجبرت على طلب الغيث من الولي محمد الدادسي الووزغيتي (ت ١٠٦٢هـ/١٦٥٢م)،[٩٥] في حين ارتبطت بعض الكرامات بالرغبة في معرفة أسرار الغيب، بهدف تجنب المشاكل والمصاعب المناخية والغذائية المحتملة، أو ما يصطلح عليه بكرامة "الكشف" أو الإدراك المسبق، وهي كرامات تنطلق من الهواجس الجماعية والفردية والسعي لمعرفة ما يخبئه المستقبل، وما قد يمنحه ذلك من أملٍ في قدوم الغيث أو إنذارٍ بقدوم الجفاف وغلاء الأسعار.[٩٦]

يرتبط النوع الثاني من الكرامات الصوفية بمواجهة مظاهر الجوع الناتج عن الجفاف عبر خاصية حماية المحصول الزراعي وحصول البركة في الطعام أو الحصول على الطعام في غير مكانه ووقته،[٩٧] وهي كرامات تدخل ضمن بلورة نسق خاص في السلوك الغذائي يتماشى والواقع البيئي الذي أفرزها؛ فالخوف من سنة فلاحية بيضاء، ظل يشكل هاجسًا بالنسبة للفلاح المغربي، وبالتالي وجد في الكرامة منفذا لضمان ما قد يصيب غلته طيلة الموسم الفلاحي من جفاف يؤدي إلى هلاك المزروعات، كما أن ندرة المواد الغذائية وتوالي سنوات القحط، أفرز هو الآخر خطابات صوفية تدل على البركة في الطعام وعلى اعتبار القليل منه قادرًا على سد رمق الجائع،[٩٨] وهي مواقف تجسد رغبة الجماعات في تجاوز الظروف الطبيعية عن طريق التحكم في المناخ، كما تعكس ذهنية المجتمع الذي "يأخذ ويعلل كل شيء باللجوء إلى الخيال وأوليات الدفاع عن الذات، [...] كما يرضي الوعي تجاه كل التحديات والحواجز ترضية سهلة".[٩٩]

في حين نجد النوع الثالث يقارب فعل الإطعام بأبعاده الرمزية والمادية المختلفة، ليشكل المقدس الصوفي مركزا لإطعام الجائعين زمن المسغبة، كحال أبو المحاسن (ت ١٠١٣هـ/١٦٠٤م) الذي زاره "من الفاسيين زهاء سبعين رجلا [...] فوافقوا قصعة من الطعام المألوف بالمغرب، المعروف بالكسكسو، وعليه مؤخر خروف مما يكفي عادة عشر رجال أو ما يقرب منهم، فأمر الشيخ بتقديمها للواردين؛ فأكلوا منها بأجمعهم طائفة بعد طائفة حتى شبعوا وبقي الطعام على حاله، وما من أحد منهم إلا وذكر عن نفسه أنه أكل من اللحم قطعتين أو أكثر. ثم انكفأ أولئك القوم إلى فاس يحدثون بما شاهدوا من ذلك [...] وقد ذكر بعض من قيدها أن جملة الآكلين منهم ومن غيرهم أربعمائة، وأنهم يجلسون عشر بعد عشرة".[١٠٠] أو كما هو الشأن بالنسبة إلى محمد أبو بكر الدلائي (ت ١٠٤٦هـ/١٦٣٦م) الذي "كان آية باهرة في إطعام الطعام للأضياف وغيرهم، وكانت له برمة أقل ما قيل أنها تسع من اللحم بقرة أو ثور، وكسكاسها أكثر من وسق دون ما يخص به العطايا".[١٠١]

هكذا إذن، تفاعل المقدس مع الأزمات التي نكبت البلاد خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، وهو تفاعل تعكسه الكرامات الصوفية التي تحيل على مضامين ذهنية قائمة الرغبة في تجاوز ونفي إكراهات الطبيعة؛ فشعور الخوف من الجوع لازم نفسية الأفراد والجماعات خلال فترات الأزمة، لهذا كان الولي ملاذ الإنسان الذي يشعر بنوع من التهديد المصيري، كما شكل هذا الخوف نفسه أحد الأسس التي تبني عليها هيبة الأولياء ونفوذهم الاجتماعي، وبذلك تجسد لنا هذه الكرامات آمال الجماعات المغلوبة على أمرها في الخلاص، من خلال التقرب من الولي صاحب الكرامات والخوارق، ولعل هذا ما جعل بعض المهتمين يرى في الكرامات صيرورة أولية للتوازن النفسي.[١٠٢]

## خَاتِمَةٌ

من حصاد ما سبق، يبدو أن أزمات الجوع التي نابت إنسان مغرب القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، قد ولّدت انفعالات حسية شكل الخوف أبرز تمظهراتها، كما فرضت عليه سلوكًا غذائيًا قائمًا على هاجس تأمين البقاء، فكان الادخار السبيل الاحترازي الدائم، غير أن شبح الموت البطيء والخوف من الهلاك جوعًا، جعله ينحو نحو سلوكات غذائية شاذة وأخرى تتجاوز القيم الإنسانية وتطفو عبرها غريزة البقاء، ومحاولة خلق نسق ذهني وتوازن نفسي قائم على الفرار الغيبي من الجوع، هذا الأخير الذي يظل "آلة اجتماعية ونفسية طاحنة".

## الإحالات المرجعية:

(١) حبيدة محمد، **المغرب النباتي الزراعة والأغذية قبل الاستعمار**، (الدار البيضاء: منشورات ملتقى الطرق، ٢٠١٨): ٩٥.

(٢)حقق تاريخ المخاوف الغذائية تقدمًا ملموسًا في الدراسات التاريخية الغربية بفعل عدد من المحاولات التي تناولت العلاقة بين الخوف والغذاء، ونذكر في هذا الصدد:

Ferrières Madeleine, Histoire des peurs alimentaires : du Moyen Age à l'aube du XXe siècle, (Paris: Seuil): 2002.

(٣) في الدراسة التي أنجزت حول الموقف من الموت، حاول المؤرخ محمد حقي الانتقال بالموت باعتباره حدثا بيولوجيا نحو دراسة أبعاده الذهنية، عبر الكشف عن منظومة التمثلات التي ترافق مشاهد الموت والاحتضار، إضافة إلى طقوس الدفن والعزاء وما يرتبط بها، لكنه في المقابل أغفل الحديث عن الأحاسيس المرتبطة بظاهرة الموت الناتج عن الأزمات الغذائية والبيولوجية. يراجع: حقي محمد، **الموقف من الموت في المغرب والأندلس في العصر الوسيط**، (بني ملال: مطبعة مانبال، ٢٠٠٧): ٨-٦٠.

(٤) شكل البحث في تاريخ الخوف أحد المواضيع التي استأثرت باهتمام بالغ ضمن نسق الإسطغرافيا الغربية، ويعد جون دولومو (J) Delumeau أحد الباحثين الذين راكموا من خلال أبحاثهم تجربة تستحق المناولة، ففي كتابه الأول الصادر سنة ١٩٧٨ بعنوان: **الخوف في الغرب بين القرنين ١٤ و١٨**، يعالج جون دولومو تاريخ الذهنيات من منظور يرصد مجتمعا أوربيا خائفا من الوباء والمجاعات والحروب وغياب الأمن، كما قدم أشكالا عديدة من المخاوف؛ كالخوف من البحر ومن الطاعون ومن القدر ومن الشيطان ومن السحر...، انظر كتابه:

Delumeau Jean, La Peur en Occident : XIV -XVIII siècles, (Paris : Librairie Arthème Fayard, 1978).

(٥) يقول جون دوليمينو DelumeauJean (J) في هذا الصدد: "من بين جميع الأحاسيس التي تمس قلب الإنسان، يبقى الخوف من دون شك الأكثر عنفا"، يراجع:

Delumeau Jean et Lequin Yves, Les Malheurs des temps : Histoire des Fléaux et des Calamités en France, (Paris : Librairie Larousse. 1987): 117.

(٦) كثيرا ما انساق الباحثون المغاربة نحو البحث في أنواع الأطعمة والمشروبات عبر تاريخ المغرب، دون تعميق البحث في أبعادها السوسيولوجية والنفسية، نذكر هنا على سبيل المثال؛ أعمال ندوة: **الأطعمة والأشربة في تاريخ المغاربة**، منشورات مجلة أمل: تاريخ – ثقافة – مجتمع، عدد ١٦، (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ١٩٩٩).

(٧) العطري عبد الرحيم، **قرابة الملح الهندسة الاجتماعية للطعام**، (الدار البيضاء: شركة النشر والتوزيع المدارس، ٢٠١٦): ١٩.

(٨) حول الأزمات الغذائية والخسائر الديمغرافية التي نتجت عنها بمغرب القرنين ١٦ و١٧م، يراجع كل من:

Rosenberger Bernard et Triki Hamid, "Famines et épidémies au Maroc aux XVIe et XVIIe siècles," Hespéris Tamuda XIV (1973): 109-175; Rosenberger et Triki, "Famines et épidémies au Maroc aux XVIe et XVIIe siècles (suite)," Hespéris-Tamuda XV (1974): 5-103.

محمد استيتو، الكوارث الطبيعية في تاريخ مغرب القرن ١٦م (الرباط: منشورات مركز ابن خلدون للدراسات والأبحاث والترجمة والتحقيق، ٢٠٢٠)؛ رحو حياة، **الهدر الديمغرافي في المغرب خلال القرنين العاشر والحادي عشر للهجرة ١٦-١٧م**، (وجدة: مكتبة الطالب، ٢٠١٢).

(٩) يقصد بالموت الجماعي الانهيارات الديمغرافية الناتجة عن الكوارث الطبيعية والبشرية من مجاعات وأوبئة وحروب، انظر: لويس فانسان توماس، **الموت**، ترجمة مروان بطش، (بيروت: منشورات مجد، ٢٠١٢): ١١.

(١٠) لطيف محمد عادل، **الخوف ببلاد المغرب في العصر الوسيط**، (تونس: دار زينب للنشر والتوزيع، ٢٠١٩): ١٤.

(١١) بوشرب أحمد، "أزمة ضمير المغربي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر"، **مجلة كلية الآداب**، جامعة سيدي محمد ابن عبد الله، عدد خاص ٢، (فاس: ١٩٨٥): ٧٤.

(١٢) يقول يشوتي محمد في هذا الصدد: "الموت حقيقة وواقع بيولوجي يتحول إلى فعل ثقافي من خلال التمثلات التي تحاول إما قبوله أو رفضه أو تجاوزه". يشوتي محمد: "الإنسان والموت"، ضمن كتاب: **الوفيات والموت: مقاربات تاريخية وأنتروبولوجية**، تنسيق محمد استيتو، علال ركوك، رشيد يشوتي، (الرباط: منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس، مطبعة الرباط نت، ٢٠١٧): ١٨.

(١٣) نلمس هذا الاقتران انطلاقا في الخطاب الديني الذي غالبا ما يربط الجوع بالخوف، كما جاء في الآية: [**الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ**]، سورة قريش، الآية ٤، أو الآية: [**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ**]، سورة البقرة، الآية ١٥٥.

(١٤) أبو إدريس إدريس، **قضايا في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والإكولوجي للمغرب الحديث [ق١٦، ١٧، ١٨]**، (مكناس: مطبعة وراقة سجلماسة، ٢٠٠٨): ٨٧.

(١٥) بوشرب، "أزمة ضمير المغربي"، ٦٧-٩٦.

(١٦) لطيف عادل، **الخوف ببلاد المغرب**، ٢٨٨.

(١٧) رودريكس برناردو، **حوليات أصيلا، مملكة فاس من خلال شهادة برتغالي**، ترجمة أحمد بوشرب، (الدار البيضاء: دار الثقافة للنشر والتوزيع، 7٢٠٠): ٢٩٦.

(١٨) **كتاب التواريخ أو تاريخ فاس**، تأليف أخبار من عائلة أبن دنان الغرناطية الفاسية، ترجمه عن العبرية عبد العزيز شهير، (تطوان: منشورات كلية الآدب والعلوم الإنسانية جامعة عبد الملك السعدي، ٢٠٠٦): ١٢-١٣.

(١٩) التمنارتي عبد الرحمان، **الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة**، تحقيق اليزيد الراضي، (الدار البيضاء: منشورات مطبعة السنتيسي، ١٩٩٩): ٣٤٠.

(٢٠) مجهول، **تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية**، نشر كولان، (الرباط، ١٩٣٤): ٩٩.

(٢١) الإفراني محمد الصغير، **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**، تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشاذلي، (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ١٩٨٨): ٢٨١.

(٢٢) الضعيف محمد بن عبد السلام الرباطي، **تاريخ الضعيف الرباطي: تاريخ الدولة العلوية السعيدة من نشأتها إلى أواخر عهد مولاي سليمان ١٠٤٣هـ/١٦٣٣م-١٢٣٨هـ/١٨١٢م**، دراسة وتحقيق محمد البوزيدي الشيخي، ج١، (الدار البيضاء: دار الثقافة للتوزيع والنشر، ١٩٨٨): ١٧٠-١٧١.

(٢٣) حجي محمد، **الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين**، ج١، (الرباط: منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٧٦): ٦٢.

(٢٤) استيتو، **الكوارث الطبيعية**، ٣٦.

(٢٥) عكس بعض الأمراض والأوبئة التي صورها العقل الجمعي باعتبارها شهادة للمسلم، كما هو الشأن بالنسبة للطاعون الذي صُور في عقلنا الديني باعتباره رحمة إلهية، وأيضا باعتباره شهادة للمسلمين، وهي جملة من الاعتقادات التي نجد مرجعيتها العقدية في النصوص الدينية والأحاديث النبوية التي رفعت مرتبة الموت بالطاعون إلى مرتبة الشهادة في سبيل الله، وهو التأويل الذي اتفق عليه للحديث النبوي: [**أتاني جبريل عليه السلام بالحمى والطاعون فأمسكت الحمى بالمدينة وأرسلت الطاعون إلى الشام، فالطاعون شهادة لأمتي ورحمة لهم ورجس على الكافرين**]. انظر: ابن حجر العسقلاني، **بذل الماعون في فضل الطاعون**، تحقيق أحمد عصام عبد القادر، (الرياض، دار العاصمة، ١٩٩٠): ١٨٠-١٨٢.

(٢٦) بوشرب، "أزمة ضمير المغربي"، ٧٧.

(٢٧) العياشي عبد الله بن عمر، **الإحياء والانتعاش في تراجم سادات زاوية آيت عياش**. (الرباط: مخطوط المكتبة الوطنية، الرباط، رقم د١٤٣٣): ٢٥٧؛ نشير كذلك إلى أن الخوف والذعر والهلع الجماعي من الأمراض والوباء، دفع بالبعض إلى محاولة التخلص في أقرب وقت من المصابين، فقد سجل المشرقي تواتر دفن المصابين وهم أحياء، كما سجل تنامي مشاعر الفردانية والأنانية بمغرب القرن ١٩م، فيقول: "ولما كثر الموت يبست القلوب واشتد الجفاء، وانتفت رحمة الله من قلوب الأغنياء وضاع الفقراء، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم"، انظر: لمشرقي العربي، **أقوال المطاعين في الطعن والطواعين**، دراسة وتحقيق حسن الفرقان، (الرباط: منشورات التوحيدي، ٢٠١٤): ١٤٠.

(٢٨) ينقل لنا القادري تفاصيل اشتداد وطأة الجفاف بمدينة فاس، وما رافقه من نهب ومآسي خلال عام ١٠٧٣هـ/١٦٦٣م فيقول: "فبسبب النهب زاد الغلاء، وبلغ القمح نحو خمس دراهم شرعية للصاع النبوي، وأكلت فيه الجيف وأكل فيه الآدمي بوسط الصفارين ميتا، وكثر الموت بالأزقة دون ما في المارستان"، القادري محمد بن الطيب، **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني**، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، ج٢، (الرباط: منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٨٢): ١٣٤.

(29) Rosenberger Bernard, "Cultures complémentaires et nourritures de substitution au Maroc (XVe-XVIIIe siècles)", Annales; Économies, Sociétés, Civilisations, N(o) 3-4, (1980) : 482.

(٣٠) تحتفظ الذاكرة الشعبية بعدد من الأمثال التي تحث على ضرورة التخزين والادخار لمواجهة محن الجوع مثل: "**اللِّي يَخْزَنْ القمح مَا يَنْدَمْ**" أو "**خَزَّانْ الدقيق ما يندم**"، و"**سعدات لِّي كْلاً من غْدَاتُو وْخَبَّعْ لَعْشَاتُو**". نجد أيضا هذا الاهتمام بالادخار في أدبيات الشعر، بحيث نظم الشعراء قصائد تحث عليه، ومنها هذه الأبيات لسيدي الحسين بن رحال (ت ١١٤٠هـ/١٧٢٧م):

إياك والتفريط في الأقوات
فهي إمام الدين والحياة
وكل أمر دونه يسهل
وكيف والجوع داء يقتل
فالقوت روح الجسم والحياة
وفقده طبعا هو الممات

انظر: ما أورده في هذا الصدد: البزاز محمد الأمين، **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، سلسلة رسائل وأطروحات رقم ١٨، (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٩٢): ٣٥٣.

(٣١) ننبه إلى أن سلوك التخزين ترسخ في ذهنية وسلوك المسلم، من منطلق النص الديني، الذي دعا إلى تخزين فوائض "**البقرات السمان**" لتمضية سنوات "**البقرات العجاف**"، مما جعل الادخار تقليدا راسخا يضرب بجذوره في التاريخ الإسلامي، راجع سورة يوسف.

(٣٢) البياض عبد الهادي، "مرافق الادخار والخزن بالمغرب الوسيط: إسهام في دراسة سلوك تأمين الغذاء"، ضمن **التراث الثقافي بجهة سوس ماسة درعة**، تنسيق محمد آيت حمزة والوافي نوحي، سلسلة دراسات وأبحاث رقم ٣٥، (الرباط: منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مركز الدراسات التاريخية والبيئية، مطبعة المعارف الجديدة، ٢٠١٣): ٥٧-٧١.

(٣٣) لا نستبعد أن تكون الحصون التي شيدت زمن المنصور السعدي، والتي كانت ذات أهداف عسكرية، قد تضمنت بحكم الضرورة، مخازن لتخزين الحبوب والمياه، ففي مدينة فاس بنى المنصور حصنا فجاء "آية الإعجاز توطيدا وتحصينا وتشييدا متممي المآرب والمرافق مستكملي التحصين الموافق مسكن الحامية المنتقاة من جيش النار ودار قائدهم وخزائن البارود والرصاص وجباب المياه الرخوة الأجواف وآبار منحوتة في الصخر إلى قعر البحر من الماء العذب الفرات". الفشتالي عبد العزيز، **مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا**، دراسة وتحقيق عبد الكريم كريم، (الرباط: مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة، ١٩٧٢): ٢٦٤. وقد بلغ عدد الحصون بالمغرب السعدي حسب المصادر المعاصرة ٣٠ حصنا، انظر في هذا الصدد:

Dziubinski Andrzej, "L'armée et la flotte de guerre marocaines à l'époque de sultans de la dynastie Saadienne", Hespéris Tamuda, Vol XIII, (1972): 61-94.

(٣٤) أعدي علي، "التخزين بالمغرب الوسيط والحديث: إسهام في دراسة تاريخ السلوكيات"، **مجلة قبس للدراسات الإنسانية والاجتماعية**، المجلد ٣، عدد ١، (الجزائر: يونيو ٢٠١٩): ١٨٨-٢٠٧.

(٣٥) Rosenberger Bernard, "Calamités, sécurité, pouvoir : le cas du Maroc XVII-XVIII", Peuples Méditerranéens, N° 27-28, (Avril-Septembre, 1984) : 123.

(٣٦) البزاز، **المجاعات والأوبئة**، ٣٦٣. يراجع أيضا: بولقطيب الحسين، **جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين**، (الرباط: منشورات الزمن، ٢٠٠٢): ٦٩.

(٣٧) الوزان الحسن، **وصف إفريقيا**، تعريب محمد حجي ومحمد الأخضر، ج١، (الرباط: منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٨٠): ٢١٥.

(٣٨) المصدر نفسه، ١٠٥.

(٣٩) الزياني أبو القاسم، **البستان الظريف في دولة أولاد مولاي علي الشريف**، القسم الأول (من النشأة إلى نهاية عهد سيدي محمد بن عبد الله)، دراسة وتحقيق رشيد الزاوية، (الريصاني: مركز الدراسات والبحوث العلوية، ١٩٩٢): ١٥٤.

(٤٠) وندسون جون، **رحلة إلى مكناس**، ترجمة زهراء إخوان، (مكناس: منشورات عمادة جامعة مولاي إسماعيل، ١٩٩٣): ٦٩.

(41) Montagne Robert, "Un magasin collectif de L'anti-Atlas L'Agadir des Ikaunka", Hespéris, T IX, (1929): 145-226.

(٤٢) كما هو حال بعض القبائل التي اتخذت من قصر كرسيف قصبة لادخار حبوبها عندما كانت تسكن الصحراء. الوزان، **وصف إفريقيا**، ج١، ٢٧٢-٢٧٣.

(٤٣) أعدي علي، "التخزين بالمغرب الوسيط والحديث"، ١٩٩.

(٤٤) المنوني محمد، **ورقات عن حضارة المرينيين**، سلسلة بحوث ودراسات رقم ٢٠، (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ٢٠٠٢): ١٤٦.

انتشرت أيضا بمنطقة دكالة مخازن جماعية عرفت باسم "التزوطات" وهي "أهرام صغيرة ذات سقوف دائرية". حول هذا النوع من المخازن، يراجع: الحزيب بوشتى، "المخازن الجماعية بدكالة: التازوطات نموذجا"، ضمن أعمال ندوة **المخازن الجماعية في الأطلس الكبير المركزي تراث مادي ورأسمال رمزي**، تنسيق سعاد بلحسن، محمد العالمي، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ١١، ( بني ملال: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ٢٠١٧): ١٦٦-١٧٨.

(٤٥) الوزان، **وصف إفريقيا**، ج١، ١٩٤.

(٤٦) المصدر نفسه، ٢١٥، انظر أيضا الصفحات: ١٢١، ٢٣٣، ١٥٨.

(٤٧) ابن عسكر محمد الشفشاوني، **دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر**، تحقيق محمد حجي، (الرباط: منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٧٧): ٤٥.

(٤٨) السوسي المختار، **المعسول**، ج١٧، (الدار البيضاء: مطبعة النجاح، ١٩٦١)، ٢٥٧-٢٥٨.

(٤٩) المصدر نفسه، 258-259.

(٥٠) الوزان: **وصف إفريقيا**، ج١، الصفحات: ٢٥٢، ٢٥٦، ٢٥٨، ٢٦١، ٢٦٣، ٢٧٩.

(٥١) هذا السلوك له مرجعية دينية، مصداقا لقوله تعالي: [**وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ**]، سورة الأعراف، الآية ٣١.

(٥٢) ابن عيشون الشراط، **الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس**، دراسة وتحقيق زهرة النظام، (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٩٧): ١٤٤.

(٥٣) لازالت مجموعة من الأمثال والحكم في هذا الصدد متداولة إلى اليوم مثل: "**كُولْ وَقِيَّسْ**"، و "**اللِّي خَبَّعْ مَنْ غْذَاتُو لَعْشَاتُو مَا يَتْشَفَّاوْ فِيهْ عْدَاتُو**" أو "**اللي خَبَّعْ مَنْ غْذَاهْ لَعْشَاهْ رَبِّي بْغَاهْ**"، و"**كُولْ واشْرَبْ وَاللِّي شَاطْ عَمْلُو فَقْرَاب**"، وهي أمثال وحكم ترسخت في الذاكرة الجمعية للمغاربة، وعكست من جانب آخر طبيعة السلوك الغذائي الذي انطبع بالتقليل من الطعام وتوفير "**النعمة**" لدوائر الزمان.

(٥٤) الزياني، **البستان الظريف**، ١٥٤.

(٥٥) العطري، **قرابة الملح**، ١١٥.

(٥٦) العياشي، **الإحياء والانتعاش**، ٢٥٣.

(٥٧) هي نبتة مبصلة تعرف أيضا باسم الدغفل، كان يبحث عنها الجياع تحت الأرض ويصنعون منه كسكسا بئيسا. حبيدة، **المغرب النباتي**، ٨٩.

(٥٨) طيلة تاريخ المغرب شكلت نبتة "**يَرْنِيْ**" ملاذا للجياع، بصم حضورها الذاكرة الجماعية حتى أضحت علامة يُؤرّخ بها، كما هو الحال بالنسبة "لعام يرني" ١٢٦٦هـ/١٨٤٩-١٨٥٠م، حيث "كان الغلاء الكبير والجوع المفرط [...] وصار يعرف عند أهل البادية بعام الخِبِّيزِي وعام يَرْنِيْ". الناصري أحمد، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق جعفر الناصري – محمد الناصري، ج٩، (الدار البيضاء: دار الكتاب، ١٩٥٥): ٦١. حول التأريخ بالكوارث الطبيعية وحضورها في الذاكرة الشفوية والتدوين التاريخي يراجع: السبتي عبد الأحد، **من عام الفيل إلى عام الماريكان: الذاكرة الشفوية والتدوين التاريخي**، (إيطاليا: منشورات المتوسط، ٢٠٢٢)، ١٣١-٢٢٢.

(٥٩) بوشرب، "أزمة ضمير المغربي"، ٧٧.

(٦٠) الإفراني، **نزهة الحادي**، ٢٤٧.

(٦١) الفاسي أبو حامد محمد العربي، **مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن**، دراسة وتحقيق الشريف محمد بن علي الكتاني، (فاس: منشورات رابطة أبي المحاسن ابن الجد، ٢٠٠٣): ٩٧-٩٨.

(٦٢) القادري، **نشر المثاني**، ج٢، ٦٧-٦٨.

(٦٣) استيتو محمد، "من وسائل مواجهة الفقراء للمجاعات في المغرب خلال العصر الحديث (نماذج من القرنين ١٦ و١٧م)"، ضمن أعمال ندوة **المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب**، سلسلة ندوات ومناظرات عدد ٤، (الجديدة: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ٢٠٠٤): ٢٥٥.

(٦٤) الإفراني محمد الصغير، **صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر**، تحقيق عبد المجيد خيالي، (الدار البيضاء: مركز التراث الثقافي المغربي، ٢٠٠٤)، ١٣٤.

(٦٥) رودريكس برناردو، **حوليات أصيلا، مملكة فاس من خلال شهادة برتغالي**، ترجمة أحمد بوشرب، (الدار البيضاء: دار الثقافة للنشر والتوزيع، 2007): ٢٩٨-٢٩٩.

(٦٦) أبو إدريس، **قضايا في التاريخ الاجتماعي**، ٢٨.

(٦٧) حبيدة، **المغرب النباتي**، ٩٣.

(٦٨) المرجع نفسه، ١١٤.

(٦٩) العياشي، **الإحياء والانتعاش**، ٢٥١.

(٧٠) يقول الزموري عبد الحق في هذا الصدد: "إن الخوف من الموت الذي يتحول لهاجس أو لرهاب جماعي يحول الأفراد إلى كائنات متوحشة". الزموري عبد الحق: "إدارة الألم زمن الجائحة"، ضمن كتاب: **الجوائح في الأزمنة المعاصرة: رؤى دينية وفلسفية**، تنسيق عبد العالي المتقي وعبد الله هداري، (أكادير: دار العرفان للنشر والتوزيع، ٢٠٢٠): ٦٧.

(71) Houbaida Mohamed, Le Maroc végétarien, 15e–18e siècles. Histoire et Biologie, (Casablanca: éd Wallada, 2008): ٥٩.

(٧٢) هذا التحول في السلوك الغذائي تفاعل معه الخطاب الديني، بحيث لم يغفل تدبير ظرفية الأزمة الحرجة، فأجاز للإنسان انقاذ نفسه من الهلاك جوعا عبر استهلاك بعض الأطعمة المحرمة، إذ استنبط الفقهاء أحكاما وضوابطا لإباحة المحظور حماية للنفس من الهلاك وفق نظرية الضرورة. [**وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ**]، سورة الأنعام، الآية ١١٩.

(٧٣) العياشي، **الإحياء والانتعاش**، ٢٥٨.

(٧٤) المصدر نفسه، ٢٥٥.

(٧٥) الإفراني، **نزهة الحادي**، ٤٠٨.

(٧٦) القادري محمد بن الطيب، **حوليات نشر المثاني**، قطعة من كتاب نشر المثاني في مكتبة البودليان بجامعة أكسفورد، نشر وتقديم نورمان سيكار، (الرباط: المعهد الجامعي للبحث العلمي، ١٩٧٨): ٥٢.

(٧٧) القادري، **نشر المثاني**، ج٢، ٦٧-٦٨.

(٧٨) القادري، **حوليات**، ٤٨.

(٧٩) يقول دي كاسترو: "ليس هناك كارثة أخرى تحطم شخصية الإنسان وتدمرها كما يفعل الجوع، فإذا الفرد استبد به الجوع لا يتورع عن القيام بأي عمل شاذ، إذ يتغير سلوكه من أساسه، كما يحدث لأي حيوان نال منه الجوع". دي كاسترو جوزيه، **جغرافية الجوع**، ترجمة زكي الرشيدي ومراجعة محمود موسى، (القاهرة: دار الهلال، ١٩٧٠): ٦١؛ من جانبه طرح سيغموند فرويد نظريته حول الدوافع الغريزية، وأكد على مركزية "غريزة حفظ الذات" ضمن هذه الدوافع، وإلى اضطرار الفرد إلى إشباع حاجاته الفطرية انطلاقا من ممارسات قد تتجاوز إنسانيته وقيمه الخاصة. انظر: فرويد سيغموند، **مختصر التحليل النفسي**، ترجمة جورج طرابشي، (بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٨١): ١١-١٣.

(٨٠) رودريكس، **حوليات أصيلا**، ٢٩٨.

(٨١) المصدر نفسه، ٢٩٩.

(٨٢) نفسه، ٢٩٩-٣٠٠.

(٨٣) المجاطي محمد بن الحسن، **نوازل المجاطي**، دراسة وتحقيق هشام الكراس، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، ج٢، (مراكش: جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ٢٠١٣-٢٠١٤، مرقونة): ٣٠٦-٣٠٧.

(٨٤) التمسماني خلوق عبد العزيز، "الظروف العامة للصوصية في مغرب القرن التاسع عشر ومشكلة الأمن بطنجة"، ضمن **مجلة دار النيابة**، العدد ١، (يناير، ١٩٨٤): ٢٧.

(٨٥) دي طوريس دييكو، **تاريخ الشرفاء**، تعريب محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، (سلا، مطابع سلا، ١٩٨٨): ٦٤-٦٥.

(٨٦) الناصري، **الاستقصا**، ج٨، ٨٣.

(٨٧) القادري، **نشر المثاني**، ج٢، ١١٩.

(88) De Castries Henri, Les sources inédites de l'histoire de Maroc, 1er série -Dynastie SAADIENNE, Tome III, (Paris: Archives et bibliothèques de France, 1911), 167.

(٨٩) تحفل المصادر التاريخية بعدد من الإشارات التي تفيد انتشار ظاهرة التنصر في صفوف المغاربة والتحاقهم بالثغور المحتلة إبان الأزمات الطبيعية، فقد أرغمت المجاعة الكبرى لسنة ١٥٢٠-١٥٢٤م المغاربة على "عبور البحر للمجيء إلى البرتغال قصد التنصر ضمانا لقوتهم، الشيء الذي استحال عليهم وقتذاك ببلادهم، بسبب القحط الذي عمها [...] وقد انتقلت أعداد كبيرة جدا منهم، إلى حد أن ليشبونة وضواحيها أضحتا غاصتين بهم". انظر في هذا الصدد:

De Góis, Damião, Les Portugais au Maroc de 1495 à 1551, traduction français avec introduction et commentaire Ricard Robert, XXXI, (Rabat: Institut des Haute Etudes Marocaines, 1937): 228.

(٩٠) حاولت بعض الأعمال الإجابة عن سؤال العلاقة بين التاريخ وأدب المناقب، وأكدت في المحصلة على أن التاريخ اليوم يتعامل مع المناقب كمادة تاريخية، تسعف في الكشف عن مضمرات التاريخ بأبعاده المختلفة. انظر في هذا الصدد أعمال ندوة: **التاريخ وأدب المناقب**، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، (الرباط: دار عكاظ، ١٩٨٨).

(٩١) المنصوري عبد السلام، **بنية الخطاب المنقبي طلاق العقل وأوهام التاريخ**، (الرباط: مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع، ٢٠١٧): ٨١.

(٩٢) الشاذلي عبد اللطيف، **التصوف والمجتمع نماذج من القرن العاشر الهجري**، سلسلة أطروحات ورسائل عدد ٤، (الدار البيضاء: منشورات جامعة الحسن الثاني، ١٩٨٩): ٣١٥-٣١٦.

(٩٣) القادري بوتشيش إبراهيم، "واقع الأزمة والخطاب "الإصلاحي" في كتب المناقب والكرامات (أواخر ق٦هـ وبداية ق ٧هـ/١٢-١٣م)"، ضمن **الإسطغرافيا والأزمة**، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ٣٤، (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٩٤): ٢٦-٤٩.

(٩٤) القادري، **نشر المثاني**، ج٢، ٥٨.

(٩٥) المصدر نفسه، ٦٢-٦٣.

(٩٦) الإفراني، **صفوة من انتشر**، ١٣٣.

(٩٧) تحفل كتب المناقب بهذا النوع من الكرامات راجع كل من: القادري، **نشر المثاني**، ج٢، ٧٩-٨٠؛ ابن عسكر، **دوحة الناشر**، ٧٧، ص ١٠٦؛ الفاسي، **مرآة المحاسن**، ١٤٧.

(٩٨) اعتبر البعض أن هذا الصنف من الكرامات يعكس في المقام الأول الخوف الذي يعتري المغربي من المجاعة ومن نقص الغذاء، إلى الحد الذي يبحث فيه عن حل دائم عبر اللجوء إلى الولي الذي يترك فسحة للأمل في تجاوز نقص الغذاء، من خلال حصول الكفاية من القليل أو تكثير القليل أو احضار غير المنتظر. الشاذلي، **التصوف والمجتمع**، ١١٣-١١٤. كما يتصل هذا النوع من الكرامات بما يعرف بكرامات تقوية البطن؛ "أن يشبع القليل من الطعام الرهط الكثير"، انظر: السبتي عبد الأحد، **بين الزطاط وقاطع الطريق أمن الطرقات في مغرب ما قبل الاستعمار**، (الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، ٢٠٠٩): ١٤٧.

(٩٩) زيعور علي، **الكرامة والأسطورة والحلم القطاع اللاواعي في الذات العربية**، (بيروت: دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٧): ٥-٧.

(١٠٠) الفاسي، **مرآة المحاسن**، ١٤٥.

(١٠١) القادري محمد بن الطيب، **التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار الحادية والثانية عشر**، تحقيق هاشم القاسمي العلوي، ج ٢، (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٣): ١٠٤.

(١٠٢) حجازي مصطفى، **التخلف الاجتماعي: مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور**، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٥): ١٤٤.